دلالة الألفاظ اللغوية

بين الثبات والتغير وعلاقتها بالمجتمع

د. عبد الغفار حامد هلال *

التفكير الإنساني، والألفاظ التي تحمله وتعبر به عن أغراض المجتمع، ظاهرة اجتماعية؛ ولذا فهي تخضع للتطور - والتغير، وهذه سنة الحياة، ولن تجد لسنة الله تبديلا.

وإذا كانت الألفاظ هي المعبرة عن الأفكار، فلاشك أنها تتطور بتطورها وتتأثر بعوامل التغير فيها.

ومن هنا حاول العلماء أن يدرسوا الدور الذي تؤديه اللغة والرموز في الحياة الإنسانية، وعلى الأخص فيما يتعلق بالفكر(١). ويهمنا - في هذا المجال - أن نسير مع تطور دلالة الألفاظ؛ لأهميتها؛ إذ تعطينا صورة من الاجتماع الإنساني لشعب من الشعوب وتدلنا على تدرج أفكاره.

---

* أستاذ أصول اللغة، وعميد كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر.

(١) د. تمام حسان: مناهج البحث في اللغة ص ٢٤٧.

وبدراسة تغير الدلالة يمكننا أن نتصور علما لسيكولوجية الشعوب يقوم على اعتبار التغيرات المختلفة التى تشاهد فى اللغات التى يتكلمونها خاصة بالمعنى، وقد تكون هذه الدراسة مضنية ولكنها تستحق ما ينفق فيها من عناء، ويمكن أن نصل فى النهاية إلى أن نكشف عند جميع الشعوب عن اتجاهات سيكولوجية واحدة على وجه التقريب هى ميول العقل الإنسانى نفسه، وقد نصل - أيضًا - إلى إقامة الحدود وتحديد بعض دقيق الفروق، فأغلب الظن - مثلا - أن تكشف لنا المفردات الإنجليزية عن احترام للأشياء الدينية وللأشخاص الذين كرسوا للدين أنفسهم، أكثر مما نجد منها فى مفردات الفرنسية، وقد تطلعنا هذه الدراسة على بعض الفروق بين الألمانيين والفرنسيين(١).

وإذا كان فى وسع التغيرات المعنوية أن تعرفنا بالسيكولوجية فإنها ليست أقل شأنا فى تعريفنا بأحوال الشعوب الاجتماعية(٢).

والألفاظ - فى مبدأ أمرها - ليست إلا جثثا هامدة يبعث المتكلم فيها الحياة(٣) متأثرًا بمجتمعه وعوامله النفسية، فالكلمات لا تدل بنفسها على شىء، ولكن المفكر يستعملها فيصبح لها معنى؛ إذ يتخذها أدوات. وبجانب الناحية الفكرية يوجد أيضا جانب عاطفى لا يمكن التقليل من شأنه(٤).

وقد أجريت تجارب لإيضاح أثر الكلمات فى العقل فأسفرت عن أنواع متعددة من الآثار اللغوية، ودلت - كذلك - على اتجاه الأشخاص فى عقلياتهم.

أ - فكان منهم الحرفيون الذين تسبح اللغة وكلماتها فى أذهانهم كما تسبح فى صفحات المعاجم فالكلمة تخطر ببالهم، تعريفها، أو مرادفها، أوضدها، أو نحو ذلك.

وهذا النوع من الأشخاص يميلون إلى التدقيق فى تخير الألفاظ وفى استخدامها على أساس ما يعرفون من هذه المعانى الحرفية المعجمية.

٢ - ومنهم النوع الحسى فى تفكيره، وهؤلاء يعتبرون الكلمات كالسلع، أو كالعملة النقدية تستخدم فى التبادل السريع

(١) فندريس : اللغة ص ٢٦٦.
(٢) المصدر السابق صـ ٢٦٨.
(٣) المصدر السابق ص١٨٥، ود. أنيس. من أسرار اللغة ص٦
(٤) د تمام مناهج البحث فى اللغة ص٢٤٧

وتتحول إلى صور ذهنية، أو حسية.

٣ ــ ومنهم نوع تكون الكلمات عنده نبرات لها أصوات وأشكال وهجاء خاص يتكون من حروف.

كل هذا يدل على أن أثر اللغة فى أذهان القارئين أو المستمعين لا يسير على منهج واحد وقد يجيء مخالفا مخالفة قليلة أو كثيرة لما فى ذهن الكاتب أو المتكلم(١).

وإن الواضع الأول يستعمل اللفظ فى معنى خاص، وهذا المعنى لا يثبت ما دام شأن الحياة التغير، فقد يحتاج - مع مرور الأيام - إلى تطوره بالاتساع بحيث يدل على ما هو أشمل، أو الضيق بحيث ينكمش فى دائرة أقل من الأولى دلالة.

ويتمثل اتساع المعنى فى كثير من الكلمات العربية الفصحى التى تطور معناها مثل ما حدث لألفاظ (الورد ــ الرائد ــ النجعة ــ المنيحة). فهذه الألفاظ كانت تستعمل فى معان خاصة ثم تطورت إلى الشمول لها ولغيرها، فالورد: كان يستعمل ــ فى فترة قديمة ــ لإتيان الماء ثم أصبح إتيان كل شيء وردا(٢)، والرائد: كان خاصا بطالب الكلأ ثم عمم ليدل على طلب أى شىء مطلقًا (٣) والنجعة: كان خاصا بطلب الكلأ ومساقط الغيث ثم عمم بعد ذلك ليصبح معناه: طلب أى شىء كلأ أو غيره(٤)، والمنيحة كانت خاصة بإعارة الناقة أو الشاة إلى شخص ليحصل على لبنها خاصة ثم اتسع المعنى ليشمل كل عطاء(٥).

وكانت كلمة Saiaire فى الفرنسية بمعنى ما يصرف للجندى من نقود نظير ما يحتاج إليه من ملح الطعام ثم شاع استعمالها فى كل أجرة حتى نسى معناها الأصلى.

والكلمة الإنجليزية arrive منحدرة عن اللاتينية adripare وهى بمعنى «يصل إلى الشاطئ» ثم اتسع استعمالها حتى أصبحت تشمل عددا ضخمًا من أنواع الانتقال(٦).

ويتمثل ضيق المعنى فيما حدث من تخصيص ألفاظ (المؤمن والمسلم والصلاة والحج) بعد الإسلام فقد كانت ــ من قبل ــ

(١) عبد الحميد حسن: الأصول الفنية للأدب ص ٥٦,٥٥.
(٢) ابن منظور : اللسان ٤/ ٤٧١، ٤٧٢.
(٣) المصدر السابق ٤/ ١٦٩ ــ ١٧٤ .
(٤) المصدر السابق ١/ ٢٢٤ ــ ٢٢٦.
(٥) المصدر السابق ٣/ ٢٢٤ ــ ٢٢٦.
(٦) ستيفن أولمان: دور الكلمة فى اللغة ص١٦٥.

تستخدم فى معان عامة ثم خصصت تبعًا لما جاء به الإسلام من مبادئ ومثل، فالمؤمن ــ أصلاً ــ مأخوذ من الأمان على النفس، أو المال، أو العرض، أو نحو ذلك، والتصديق بكل شىء فخصصه الإسلام بالمصدق بالله ورسله وكتبه وملائكته واليوم الآخر.

والمسلم ــ فى أصل اللغة ــ من الإذعان والتسليم مطلقًا ثم خصه الإسلام بالمذعن لأوامر الله المنقاد له وحده.

والصلاة : كانت بمعنى الدعاء ثم أصبح معناها ــ فى الإسلام ــ الأقوال والأفعال المخصوصة المفتتحة بالتكبير والمختتمة بالتسليم بشرائط خاصة.

والحج : القصد مطلقًا ثم خص ــ فى الإسلام ــ بقصد بيت الله الحرام على هيئة خاصة وشرائط خاصة (١).

وهكذا فإن ألفاظًا كثيرة خصص معناها فى الشريعة الإسلامية ويمكن الرجوع إليها فى كتب الفقه الإسلامى.

وقد أدت نشأة العلوم وتقدمها إلى نقل ألفاظ كثيرة من معناها العام واستعمالها مصطلحات علمية فى معان خاصة، ومن أمثلة ذلك مصطلحات (علم النحو) كالمبتدأ والخبر والفاعل والمفعول وغيرها، وفى علم النفس ــ مثلا ــ نجد مصطلحات ثلاثة هى (الإدراك والوجدان والنزوع)، ولكل منها معنى لغوى عام خصص فى علم النفس بما اصطلح عليه من العمليات النفسية الثلاث التى تترتب إحداها على الأخرى للحصول على شىء ما.

فالأول يعنى : الإحساس بالشىء، أو رؤيته.

والثانى يعنى حب الشىء

والثالث يعنى. الحصول عليه، أو محاولته.

وهكذا فإن المتخصصين فى العلوم والفنون ينقلون بعض الألفاظ من معانيها العامة إلى معان خاصة اصطلاحية، ويكثر استعمالها فيما نقلت إليه من دلالة جديدة فتشتهر فيها وتنسى دلالتها القديمة عند أصحاب هذه العلوم والفنون.

وقد ينتقل اللفظ ــ أحيانًا ــ إلى معنى مغاير لمعناه القديم فيعد أجنبيا ويتم فى إطار علاقة تسوغ الانتقال، فليس معنى أنه أجنبى عدم وجود مناسبة بين المعنيين، ولكن اعتباره أجنبيا مبنى على عدم اشتراكهما فى الفكرة الأساسية التى تتحول من العموم إلى الخصوص، والعكس كالصورتين السابقتين.

(١) السيوطى · المزهر ١/ ٤٢٧ ــ ٤٣٢

فالنافقاء إحدى جحور اليربوع التى يستطيع بها هذا الحيوان أن يفلت من صائده، وقد اشتقت منها – بعد الإسلام – كلمة «المنافق» – لمن يظهر خلاف ما يبطن والعلاقة متحققة فى التشابه بين المعنى القديم والمعنى الجديد.

وكلمة (الغيث) تستعمل – فى الأصل – للمطر وقد استعملت للنبات الذى ينشأ عن المطر مجازًا فيقال: رعينا الغيث، والعلاقة السببية. و(الوغى) معناه الحقيقى (اختلاط الأصوات فى الحرب)، ثم أطلق على الحرب نفسها على سبيل المجاز(١)، وشاع استعماله فيها، والظعينة: أطلق – قديمًا – على المرأة فى الهودج ثم نقل إلى الهودج تارة، وإلى البعير الذى يحمله تارة أخرى، وقد غلب الاستعمال المجازى(٢).

والعقيقة: هى – فى الأصل – الشعر الذى يخرج على الولد من بطن أمه، ثم نقل إلى الذبيحة التى تنحر عند حلق ذلك الشعر على سبيل المجاز(٣).

والكلمة الإنجليزية style معناها (أسلوب) يرجع إلى كلمة لاتينية معناها (آلة مستدقة الرأس) تستعمل فى الكتابة وتظهر صورتها المصغرة فى الكلمة الإيطالية stilet-to ثم حدث أن خلعت الآلة اسمها على نوع من الوظائف التى تقوم بها.

وللانتقال المعنوى صورتان:

الأولى: الانتقال من المحسوس إلى المعقول كما فى كلمة (المنافق) العربية وstyle الإنجليزية.

الثانية: الانتقال من المحسوس إلى نظيره المحسوس كما فى استعمال كلمة (الغيث) للنبات.

ولسنا فى حاجة إلى القول بأن الاتساع والتضييق ينشأان من الانتقال فى أغلب الأحيان(٤).

وحالات الاتساع والتضييق اجتماعية فى طبيعتها، فكل مجتمع يضم طبقات مختلفة فى البيئة التى يعيشون فيها من مدن وقرى وجبال وسهول ووسائل حياة متنوعة، وهذه الطبقات ذوات حرف ومهن كثيرة، وبينها تباين فى نظم الحياة والتفكير ودرجات

---

(١) من إطلاق الجزء على الكل.

(٢) بعلاقة المجاورة المكانية .

(٣) بعلاقة المجاورة الزمانية.

(٤) فندريس : اللغة صـ٢٥٦ .

التعليم والثقافة وغير ذلك، وينعكس أثر هذا الاختلاف على اللغة كما ينعكس على غيرها من مظاهر حياتهم.

فلا ريب أن كل فريق منهم يفهم بعض ألفاظ اللغة على نحو خاص، أو يدخل عليها بعض التغيير الذى يناسبه، وذلك قد يؤدى إلى اختلاف دلالتها.

فالاسم العام قد يستعمل لدى بعض المتكلمين مرادًا به الخاص فى حالات اجتماعية معينة، فعند استعمال الفلاح والراعى والحوذى لكلمة (البهائم) يختلف المعنى المراد منها عند كل منهم، فالفلاح قد يقصد بها «البقر» لأنه هو الموجود عنده، والراعى يقصد بها «الأغنام»، والحوذى يريد الخيل الخاصة به.

وكلمة (عملية) يختلف معناها بحسب الطائفة التى تستخدمها وبحسب ما تستعمل فيه من طب، أو مال، أو فن حربى، أو شئون الغابات، أو الرياضة، فهى ـ عند الأطباء ـ بمفهوم خاص وعند التجاريين بمفهوم آخر، وعند العسكريين بمفهوم ثالث وهكذا.

وكلمة (حقل) تختلف بحسب الطبقات الاجتماعية التى تستعملها فالحقل ـ لدى طبقة الفلاحين ـ خاص بالأراضى الزراعية مكان عملهم اليومي، على حين أنها تطلق ـ لدى العلماء والباحثين ـ على ميادين إجراء بحوثهم فيقولون: أثبتت التجارب فى هذا الحقل (١) صحة ما نذهب إليه من النتائج العلمية التى تشمل كذا وكذا، ويقال: حقل القوى البشرية إلخ.

و(المعمل) ـ لدى طائفة منتجى «الفراريج» ـ يطلق على بناء خاص يوضع فيه البيض للتفريخ ـ وهذا اللفظ بعينه يطلق ـ فى مجال الأبحاث العلمية ـ على مكان الأجهزة الدقيقة التى يجرى بها العلماء والباحثون تجاربهم، ولا تطلقه إحدى الطائفتين على غير ما تعرف فى مجالها.

وكلمة (موسم) تختلف عند مدير الفندق وصاحب «الغلال» وتاجر الفاكهة والزارع وصاحب الخياطة بل وعند كل تاجر، أو صانع.

وانتقال الأمة من جيل إلى آخر يؤثر فى المعنى، فالأبناء لا يستعملون اللغة كما يستعملها آباؤهم فيعتريها التغيير على ألسنتهم وربما نقلوا اللفظ من معنى قديم إلى

(١) يقصدون مجالا معينًا من مجالات بحوثهم فى مختلف نواحى الحياة زراعية وصناعية وتجارية وفلسفية وغيرها

آخر جديد فتختلف مدلولات بعض الألفاظ.

فالكلمة الفرنسية soaul كان معناها فى الأصل «الشبعان من الطعام». ثم شاع استعمالها — فى أحد العصور — بمعنى «النشوان من الخمر» على المجاز والتهكم والتحرج من استعمال الكلمة الصريحة فى هذا المعنى وهى ivre فعلق هذا المعنى الجديد وحده بأذهان الصغار فى هذا الجيل، ثم استمر إطلاقها بهذا المعنى بعد ذلك ومات المعنى القديم.

والاسم الخاص الذى يسمى به نوع من أنواع الجنس قد يطلق على الجنس كله وهذه هى حال الأطفال الذين يسمون جميع الأنهار باسم النهر الذين يروى البلدة التى يعيشون فيها»(١).

فقد يرى الطفل القاهرى أى نهر فيسميه «نيلا» والطفل الباريسى — كما يقول فندريس — قد يرى أى نهر فيسميه «سينا».

وتلك غلطة طفل لا يدوم لها أثر، ولكن هناك أخطاء مماثلة قد استمر بقاؤها؛ ففى السلافية الجنوبية صار اسم الوردة يطلق على الزهرة عموما، وقد حدث تبادل بين اللفظين الوردة والزهرة نتيجة لذلك فى بعض اللغات، فاستعملت الألمانية كلمة «الوردة» للتعبير عنهما واختفت كلمة «الزهرة» منها وصارت اللهجات الإيطالية — بالعدوى — تطلق اسم الوردة على كل زهرة.

وهكذا تختلط لسهولة النسب الكامنة بين الأجناس والأنواع(٢).

وقد تطورت معانى كثير من ألفاظ العربية الفصحى على لسان الأبناء عما كانت تدل عليه لدى الأجداد إلى معان أخرى.

وفى العاميات كثير من مظاهر هذا الانتقال فكلمة (الجعالة) فى الفصحى لها عدة معان من بينها «الرشوة»، وقد نقلها اليمنيون المعاصرون — من هذا المعنى — إلى ما يقدم للطفل من حلوى لإسكاته عند البكاء وذلك بمثابة الرشوة له ليسكت، وكلمت «سنب» يستعملها اليمنيون بعدة معان منها (قف) — (انتظر قليلاً) — (٣) وكأنهم اشتقوها على سبيل المجاز من الكلمة العربية (السنبة) التى هى الحقبة من الزمن، أو البرهة منه (٤).

(١) اللغة فندريس . ص ٢٥٧.

(٢) فندريس . اللغة ص٢٥٨، وانظر الموضوع بأسره ص٢٥٦ — ٢٦١

(٣) سمعت ذلك بالمشافهة فى صنعاء.

(٤) ابن منظور : اللسان ١/٤٥٧.

وقد تطورت معانى بعض الألفاظ فى العامية المصرية، فلفظ (جيب) تطور معناه الأصلى وهو الدلالة على الفتحة التى يلبس منها القميص (١) إلى المعنى المعروف الآن.

وكلمة (بطح) انتقلت من الدلالة على البسط على الأرض(١) إلى معنى (عورة).

وقد حاول بعض العلماء أن يبين الطريق التى يسلكها المعنى فى تطوره وانتقاله فقال:

«١ ـ ورود معنى جديد فى موضع خاص.

٢ ـ مرحلة انتقالية من تكرر الورود والارتباط بين الصيغة والمعنى.

٣ ـ ظهور معنى جديد مستقل فى مواضع مختلفة.

٤ ـ إمكان قطع الصلة بين المعنيين القديم والجديد، وهذا لا يحدث ـ بالطبع ـ إلا بقرار من (ملايين) المتكلمين، وبالانتفاع بعوامل مثبتة للمعنى الجديد هى القوة العاطفية(٢).

وقال بعض المحدثين: إن اللفظ الواحد قد تتعدد معانيه إلا أن أحد المعانى لابد أن يطغى ـ غالبًا ـ على ما عداه، وهو الذى يعين معنى الكلمة الأساسى على النحو الذى يسجل عليه فى القاموس، فكلمة «العين» ـ فى اللغة العربية ـ لها عدة معان أولها «الباصرة» ـ وهو المعنى الغالب ـ وباقيها يرجع إليها على طريق التشبيه والمجاز(٣).

فإذا اتفق أن وجد استعمالان غالبان، أو أكثر، ولم يكن فى الإمكان تداخلهما فمعنى ذلك أننا أمام كلمتين مختلفتين» ومثال ذلك فى الفرنسية

il loue un maison «يؤجر بيتا» و

il loue la vertu « يمتدح الفضيلة».

فالفعل المستعمل فى الجملتين فى كلا المعنيين «يؤجر ويمتدح» واحد هو Loue. ولكن العالم الاشتقاقى يرى اختلافه فى أصل الاشتقاق فالفعل بمعنى «يؤجر» أخذ من الكلمة اللاتينية Locare «يستأجر»، أو «يؤجر» وبمعنى «يمتدح» من الكلمة اللاتينية Laudare «يمتدح» ثم اجتمعا على طريق المصادفة فى مجموعة واحدة من الأصوات.

ومثال ذلك ـ فى العربية «وجد» يجىء ماضيا من الوجدان بمعنى العلم بالشىء والعثور عليه، فيقال : وجدت الضالة: إذا

---

(١) المصدر السابق ٣/ ٢٣٦.

(٢) د تمام: مناهج البحث فى اللغة ص٢٤٢.

(٣) انظر: السيوطى: المزهر ط الأولى ١/ ١٧٩ ـ ١٨٠.

عثرت عليها، ووجدت زيدًا كريما: إذا علمته كذلك، ومن الموجدة بمعنى الغضب فيقال: وجدت عليه: إذا غضبت، ومن الوجد بمعنى الحب الشديد فيقال: وجد به وجدًا: إذا هويه وأخلص فى حبه.

ولكن هذا المعنى الغالب لا يستطيع أن يضمن لنفسه البقاء مطلقًا فهو محوط بمعان ثانوية تتحفز دائمًا للظهور عليه واحتلال مكانه، والمعنى الجديد ينمو شيئاً فشيئًا ويحل نفسه محل القديم كما يمتص فرع الشجرة العصير إلى أن يذوى الجذع الأساسى وعندئذ تجد الكلمة نفسها وقد تغير معناها.

ويتضح ذلك فى كلمة Board فقد كان معناها المركزى ــ فى الإنجليزية القديمة ــ لوحة خشبية، وكان لها بعض المعانى الخاصة الأخرى، وكان أحد المعانى الخاصة لها «درع» وقد بطل هذا بطلانا تاما وكان من هذه المعانى ــ أيضا ــ جانب السفينة، وقد أدى هذا المعنى الأخير إلى بعض الصيغ المنعزلة.

ou board a ship
a board a ship
tc board a ship

وقد توسع فى هذه الصيغ حتى استعملت مع المركبات الأخرى كعربات السكة الحديد ــ والسيارات(١).

ونلاحظ فى انتقال المعنى وجود علاقة ــ غالبًا ــ بين المعنى الأصلى والمعنى المنتقل إليه، وقد توضع الكلمة لمصطلح علمى يعتمد على علاقة ما وأهم هذه العلاقات:

١ ــ علاقة الاستعارة، وهى المشابهة: فقد يكون الارتباط بين المعنيين ــ القديم والجديد ــ قائمًا على أساس المشابهة بينهما ولذلك أمثلة كثيرة ورد بعضها فيما سبق، ومن ذلك أيضا فى اللغة العربية: «الأفن» فهى ــ بالمعنى القديم ــ قلة لبن الناقة ثم انتقلت إلى «نقص العقل» والعلاقة المشابهة فى النقص وإن كان فى الأول حسيا، وفى الثانى معنويا.

٢ ــ علاقات المجاز المرسل: للمجاز المرسل علاقات كثيرة نذكر منها: السببية كما فى قولك «رعينا الغيث»، والمراد: النبات. والمسببية كما فى قوله تعالى: ﴿وينزل لكم من السماء رزقًا﴾، والمراد: المطر. والظرفية كما فى قولك: شربت كأسًا» والمراد ما فيه.

(١) انظر: فندريس اللغة ١٢٧ ، ٢٢٤. ود. وافى: فقه اللغة ص١٨٥، د. تمام: مناهج البحث فى اللغة ٢٥٠.

وقد انتقلت ـ بعلاقة المجاورة المكانية ـ كلمة الظعينة، وبعلاقة المجاورة الزمانية كلمة العقيقة على النحو الذى أشرنا إليه فيما سبق.

وكلمة bureau (مكتب) قد يكون معناها اليوم: المكتب الذى يجلس عليه الإنسان ويكتب عليه، أو المصلحة الحكومية، أو المكان الذى تدار فيه الأعمال، فليست هناك علاقة المشابهة بل لعلاقة أخرى هى ارتباطهما فى ذهن المتكلم فهما تنتميان إلى مجال عقلى واحد (١).

وهذا ما عناه فندريس حين قال: إن انتقال المعنى يتضمن طرائق شتى يطلق عليها النحاة أسماء اصطلاحية motaphore (الاستعارة)، وsynecdoque (المجاز المرسل بوجه عام)، أو catachrese (المجاز المرسل، أو غيره عند عدم وجود اسم للشىء المنقول إليه)(٢).

وفى المصطلحات العلمية يعتمد عادة على علاقة ما، كما هو الشأن فى نقل الألفاظ وقد تلتمس التماساً لصحة النقل ووضع الاصطلاح.

وبناء على ما قدمه هذا البحث من تطور دلالة الألفاظ يمكن أن ينشأ علم دلالة عام، وذلك بتركيز المعلومات المنتقاة من كل لغة عن تغيرات المعنى، فيسمح لنا هذا العلم بإرجاع تلك التغيرات إلى بضع قواعد لا من وجهة نظر منطقية كما فعل العلماء حتى الآن، بل من وجهة نظر سيكولوجية، وذلك يتطلب الابتداء من الأفكار التى تعبر عنها الكلمات لا من الكلمات نفسها(٣).

---

(١) ستيفن أولمان: دور الكلمة فى اللغة ص١٧٣.
(٢) اللغة ص ٢٥٦.
(٣) المصدر السابق ص ٢٦٢.